السلطان

ألف هذا الكتاب «برتر اندراسل» وعربه الأستاذ خيرى حماد.

ويتألف الكتاب من ثمانية عشر فصلا تتابع على النسق التالى:

الحافز على السلطان- القادة والاتباع- أشكال السلطان- سلطان الكهنوت- سلطان الملوك- السلطان العارى- السلطان الثورى- السلطان الاقتصادى- السلطان على الرأى - العقائد منابع للسلطان والفرد - التنافس- السلطان والسنن الأخلاقية- فلسفات السلطان- أخلاقيات السلطان- ترويض السلطان.

أما المؤلف فليس بحاجة إلى التعريف فهو يتصدر فلاسفه عصره وفلاسفته الاجتماعيين بخصب الإنتاج وعمقه وأثره البعيد فى العقول والأفكار... يتوج هذا نضاله المستميت فى سبيل السلام العالمى، والحرية الفكرية والإصلاح الاقتصادى.

لقد قاد وهو فى التسعين من عمره (مظاهرة جماهيرية فى لندن أثارت ضجة عالمية كبيرة، تحدى فيها حكومته وقوانينها، مطالبا بالسلام والعمل من أجله، وداعيا إلى التخلى عن الأسلحة النووية والأحلاف العسكرية).

واعتقلته الحكومة وقدمته إلى المحاكمة وأدانه القضاء الإنجليزى وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع أن القضاء البريطانى يحكم بغير نص مكتوب لتقدير العامل النفسى ونبل الغرض فى مثل هذه الحالة.

ولد برتراند آرثر وليام راسل فى انجلترا سنة ١٨٧٢ وهو الأبن الثانى للفيكونت (اللورد) امبرلى. ودرس فى صباه دراسة خاصة ثم التحق بجامعة كمبردج حيث حصل بتفوق على شهادتها فى الرياضيات والعلوم الأخلاقية. والتحق بالسلك الدبلوماسى سنة ١٨٩٤ حيث عمل ملحقا بسفارة بلاده فى فرنسا ثم لم يلبث أن تركه حين عين استاذا بالكلية التى تخرج فيها.

وفى سنة ١٩٠٣ أصدر أول كتبه وهو (مبادئ الرياضيات) ولكنه أخرج من الجامعة سنة ١٩١٤ لغلوه فى الدعوة إلى السلام.. بل صدر عليه من جديد سنة ١٩١٨ حكم يقضى بسجنه ستة أشهر لنشره مقالا فى «التربيونال» داعيا إلى السلام.. وفى فترة سجنه وضع كتابه الثانى

(مقدمة للفلسفة الرياضية) كما وضع كاتبنا الأستاذ عباس محمود العقاد فى سجنه كتابه (عالم السدود والقيود)..

واتصل انتاجه وتوالت كتبه ومن أشهرها:

(فلسفة ليبنيتز) - (أبجديات الذره)- (ابجديات النسبية) (على هامش الفلسفة) - (مقالات شكية) - (الاتجاه العلمى) - (السلطان Power)- (تحقيق فى معنى الحقيقة) - (تاريخ الفلسفة الغربية) - (تحليل المادة) ثم - (تحليل العقل)- (السلطة والفرد) - (انتصار السعادة) - (التربية والنسق الاجتماعى) -(الحريه والتنظيم) - (المعرفة الإنسانية) - (المجتمع الإنسانى فى أخلاقه وسياساته)، (أثر العلم على المجتمع)- (التغنى بالبطالة)- (المنطق والمعرفة)- (الزواج والأخلاق)- (التصوف والمنطق)- (آمال جديدة فى عالم متطور)- (التربية)- (معرفتنا عن الكون)- (صور من الخيال)- (البلشفية فى نظريتها وإجراءاتها)- (مبادئ إعادة البناء الاجتماعى)- (لماذا أنا لست مسيحيا)، وغيرها.

ويرى المعرب، أن «برتراندراسل، نسيج وحده فى تفكيره، فهو ليس بالاشتراكى، ولا بالماركسى، ولا بالليبرالى، ولا بالمحافظ إنما هو مزيج من كل هؤلاء فى وقت واحد، ويطلق على فلسفته الاستقلالية الخاصة اسم (الذرية المنطقية» إذ يجمع فيها بين الفلسفة والرياضيات، وينحو فيها منحى المصلحين النفسيين الذين يضفون أسمى القيم على الحوافز الخلاقة لا الحوافز المسيطرة على الإنسان، ولكن الاسم الحقيقى الذى يصح إطلاقه على فلسفته، والذى أجمع المفكرون على تسميتها به، هو «الايجابية المنطقية».

وفى فصل (الحافز على السلطان) يقول إن نسبة كبيرة من الجنس البشرى، يضطرون إلى العمل المنهك للحصول على ضروريات الحياة ومع هذا يبذل موسرون جهودا شتى فى التأليف الفنى والبحث العلمى والتدريس الجامعى.

إنه الغذاء المعنوى والروحى والفنى والعلمى وهنا تكمن قيمة الإنسان وهنا يكون التفاضل بين الناس.

ولا يمكن تفيسر التاريخ كما يقول برتراندراسل، من قديم وحديث، تفسيرا صحيحا، إلا على ضوء إدراكنا الحقيقة الواقعة، وهى أن حب السلطان هو السبب فى جميع النشاطات الهامة فى حقول الشئون الاجتماعية.

ومن السلطان الثراء، والتسلح، والسلطان المدنية، والتأثير على الرأى العام.

وعنده أن أبشع ألوان السلطان هو السلطان العارى، ويكون السلطان عاريا، عندما يحترمه أتباعه لمجرد أنه سلطان، لا لأى دافع آخر.

وترتبط معظم مخازى التاريخ البشرى، بالسلطان العارى، ليس فقط بالمخازى المرتبطة بالحروب وحدها، بل المخازى الأخرى أيضا، التى لا تقل عنها فظاعة وإن كانت أقل منها بروزا.. ومن هذه المخازى: الرق وتجارة الرقيق، واستغلال الكونغو، وفظائع العهود الأولى للثورة الصناعية، والوحشية فى معاملة الأطفال فى المصانع، والتعذيب القضائى فى السجون، والقوانين الجنائية، والسجون، والمشاغل، والاضطهاد الدينى، وآثام الطغاة، والجور فى معاملة الخصوم وضحايا العزل من الذين لاحول لهم ولا قوة.

لاندحة عن وجود سلطان ولكن برتراندراسل يرى أنه إذا أريد للحياة الإنسانية، أن تكون بالنسبة إلى جماهير الجنس البشرى، أفضل وأجدى من مجرد شقاء رتيب، تقطع رتابته لحظات من الفزع الشديد، فإن من الضرورى أن يكون هذا السلطان العارى أقل ما يمكن.. وأن يكون محاطا بالضوابط والقوانين التى يضعها من عرفوا بعملهم فى سبيل مصلحة الأتباع الذين يتولون رعاية شئونهم.

ولعل من غير المجدى، توكيد الثقة فى فضائل شخص معين أو مجموعة من الأشخاص، ففكرة «الملك الفيلسوف» قد غدت منذ عهد بعيد حلما كاذبا، بينما يرحب الناس بفكرة «الحزب الفيلسوف» على أنها اكتشاف جديد وعظيم على الرغم من خطئها الذى يعادل خطل الفكرة الأولى.

ويسخر برتراندراسل من السلطان الاقتصادى فهو عنده لايعتمد على القانون إلا فى القضايا الصغيرة التى لا أهمية لها، أما فى القضايا الكبرى، فهو يعتمد على الحرب أو التهديد بها. ويضرب مثلا بسيطرة شركة الزيت الانجليزية الايرانية على جنوب إيران، أما الولايات المتحدة فتعود ملكية الزيت إلى شركات معينة تزعم لنفسها ادعاء قانونيا فيه ولأن قوات الولايات المتحدة المسلحة، على استعداد لإنقاذ القانون، أما الهنود الحمر، الذين كانوا يملكون المناطق التى تقع فيها حقول الزيت هذه، فقد فقدوا حقهم القانونى فيها، لأنهم هزموا فى الحرب.

كما تعود ملكية مناجم الحديد فى مقاطعة اللورين، إما إلى مواطنى فرنسا أو إلى مواطنى ألمانيا، تبعا لانتصار هذه أو هزيمة تلك فى آخر حرب وقعت بين البلدين... وهكذا.

ويؤمن برتراندراسل بسلطان الرأى ويراه ركيزة لسلطان العلم ولهذا تدأب الدول فى عصرنا الحاضر، فى الدول المتحضرة، على تشجيع العلم، ولكن الحالة لم تكن على هذا النحو فى مستهل النهضة العلمية كما يقول فقد أرغم «جاليليو» على الانسحاب والتراجع، ولحق الضيق «نيوتن» يتعيينه مديرا لصك النقود، وأعدم «لافوازييه» على المقصلة على اعتبار أن (الجمهورية لاتحتاج إلى العلماء)!!

ويمضى براتراندراسل فى سخريته بقوله:

(ويحبس المجانين الذين ثبت جنونهم فى أماكن معزولة، وذلك بسبب ما يبدونه من ميل إلى العنف، عندما يشك الناس فى ادعاءاتهم، أما المجانين الذين لم يثبت جنونهم بشهادات طبية، فيعطون السيطرة على جيوش قوية، ويستطيعون ايقاع الموت والكوارث بجميع العقلاء من الناس، الذين يقعون فى متناول أيديهم. ونجاح الجنون فى الأدب والفلسفة والسياسة هو من إحدى غرائب عصرنا الحالى. ويكون هذا الشكل الناجح من الجنون، ناجما إلى حد كبير أو كلى، عن حوافز السلطان).

وفى فصل (ترويض السلطان) يحكى برتراندراسل قصة طريفة مؤداها أنه عندما مر كونفوشيوس على بالقرب من من جبل ثاى، أبصر امرأة كانت تقف إلى جانب أحد القبور وتبكى بمرارة وحرقة. فسارع المعلم إليها... وبعث بتسى- لو، يسألها... إنك لتبكين يا امرأة وكأنك احتملت الأحزان فوق الأحزان» فردت المرأة تقول: «وكذلك الأمر... فقد قتل نمر من قبل والد زوجى فى هذا الموقع... وقد قتل زوجى أيضا... وها هو ولدى قد مات نفس الميتة أيضا». فقال المعلم، ولماذا، لماذا لم تتركوا المكان؟» فردت المرأة «ليس هنا حكومة ظالمة» فقال المعلم آنذاك: «تذكروا قولها، يا أولادى: إن الحكومة الظالمة أشد فظاعة من النمرة».

وقد عرض برتراندراسل لجميع ألوان الحكم من عسكرى «اوتوقراطى» والحكم بأمر الله «الثيوقراطى Theocracy » والملكية الوراثية، وحكم القلة، والنظام الديمقراطى، وحكم القديسين، الذى ساد بعد فشل تجربة كروميل وعاد يبعث من جديد على أيدى لينين وهتلر.

ويخرج من هذا بأن مشكلتنا لم تحل بعد ومن هنا يقول:

(يجب أن يتضح لكل من يدرس التاريخ أو الطبيعة البشرية، أن الديمقراطية، على الرغم من أنها لاتشكل الحل الكامل، إلا أنها جزء جوهرى من الحل) .

وهو يعتقد أن العالم إذا تخلص فى يوم ما من الخوف من الحرب، فإنه يستطيع مهما كان شكل الحكومة القائمة فيه، أو النظام الاقتصادى الذى يسوده، أن يجد السبل فى الوقت المناسب لكبح مالدى حكامه من شراسة.

ويختم براتراندراسل، كتابه الكبير بقوله:

على النحو الذى نعلم فيه أطفالنا تجنب الموت تحت عجلات السيارات إذا استطاعوا، يجب أن نعلمهم تماما، تجنب تدمير أنفسهم بخيالات فظيعة، وعلينا تحقيقا لهذه الغاية أن نعمل على إنتاج الاستقلال الفكرى، القائم جزئيا على الشكية، وكليا، على العلم، وأن نحفظ جهد طاقاتنا، ما فى الحياة من مرح غريزى، يكون فطريا عند الأطفال الأصحاء وهذه هى مهمة التربية الحرة (الليبرالية)، أى إضفاء معنى من القيم على الأمور دون حصره فى السيطرة، والعمل على خلق مواطنين عقلاء، فى جماعة حرة، وتمكين الناس عن طريقة الجمع بين الرعوية والحرية فى ظل الخلقية الفردية، من إضفاء ذلك الرواء على الحياة الإنسانية، الذى تمكن البعض من إظهار طاقاتهم على تحقيقه.

كتاب يستحق أن تقرأه الشعوب والحكام على سواء.

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٦٤٤٥
ISBN : 977-281-209-6